في السيرة.. والمنهج (*)

على صعيد العلاقة بين الأمة وبين القيم التي مكنت لها عبر التاريخ، وأسلمتها إلى حيث الريادةُ والقيادةُ، وإنجازُ البناء الحضاري الفريد بإنسانيته وشموله.. على صعيد هذه العلاقة وعدم الغفلة عن الواقع والمتغيرات التي ترفده يوماً بعد يوم.. تزدحم الصور في ذهن المرء، وهو يعيش هذا الواقع الضارب بجرانه على الأمة، وما يكتنف وجودها من مصاعب ومتاعب، ويتحسس الطريق إلى ما به يكون التحول إلى ما هو الأفضل والأقوم.. ثم يجد أن القضية التي تطرح نفسها على الساحة دائماً هي: إلى أي حد يبدو التخالف أو التوافق بين مسلك الأمة في شتى المجالات والميادين، وبين منهج الحياة الذي تقدمه «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، ثم إلى أي حد كان انعكاس ذلك على طريقها في الماضي وفي الحاضر، وما هو أثر ذلك كله على المستقبل.

ذلك: لأن المنهج الرباني يستعلي ـ كما هي طبيعة رسالة الإسلام ـ على حدود الزمان والمكان، فهو للحاضر كما كان للماضي، وهو للمستقبل كما تراه البصيرة للحاضر، وفي الوقت نفسه ليس تجربة تحتمل الخطأ والصواب ولكنه صواب كله وخير كله.

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد الثاني، السنة الثانية والعشرون، ربيع الآخر ١٤٠١هـ، شباط ١٩٨١م.

أما منحنيات الضعف: فمردها إلى الناس حين تقعدهم عزائمهم الوانية عن الصعود إلى المرتقى الذي كفاؤه صدق في المواطن، وبذل لا يعرف التواني، وإقدام على مخالطة الحياة بروح المؤمن الذي لا يعرف اليأس إلى نفسه سبيلاً، مادام يتعامل مع الله الذي لا يضيع عنده مثقال ذرة.

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾. ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾.

أقول هذا وتباشير (ربيع الأول) تنشر أعلامها، شهر مولد رسولنا ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ومن أرسله إلى الناس كافة، وائتمنه على وحيه، فأدى الرسالة، وبلغ الأمانة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين.

وإنما قلت ذلك، لأن هديه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وهو المبين عن الله عز وجل وطاعته من طاعة الله ـ لا بد أن يكون في الحسبان دائماً على صعيدي التصور والتطبيق، سواء أكان ذلك في رصْد الواقع ومقدارِ قربه من منهج الله أو بعده عنه، أم كان في تلمُّس المخرج المناسب الذي ينقذ من الوهدة، ويتجه بالأمة وجهة الذاتية، والبرهان على صدق الانتماء، وسلامة المنطلق في الموالاة والمعاداة.. كيما يكون من وراء ذلك تحرير الأرض والنفوس والعقول، واستئناف مسيرة الخير، وعودة ظافرة إلى المستوى اللائق ـ علماً وعملاً وجهاداً ـ بأمة اجتباها الله لحمل الرسالة الخاتمة، وجعل منها أمة الشهادة على الناس يوم القيامة في أخطر قضية من

قضـايا الإنسـان، وهـي تبليغ رسـالات السماء ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

بل جعل منها ـ بما تحمل من عقيدة التوحيد، وبما تلتزم به من ترجمة مدلولها وأبعادها إلى وجود ذاتي متحرك على صعيد الفرد والجماعة والأمة في كـل ميـدان من الميـادين ـ خير أمة أخرجـت للناس كلهم ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

والناظر في سيرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يقود معركة الحياة ـ لا يعوزه الدليل على ما نقول، فقد أدى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أمانة البلاغ، وربى المسلم على عقيدة التوحيد، ونظم فكره وسلوكه، وارتقى به ـ بعـد جـاهليـة جـهـلاء ـ إلى حـيث وضـوحُ الرؤية في الغـاية والوسـيلة، والتطلعاتِ التي لا يحكمها الهوى أو النزعات الضيقة الهابطة.

ومن خلال ذلك وكل ما هو منه بسبيل.. خاض ـ صلوات الله وسلامه عليـه ـ بالمسلمين معـركـة الوجـود الحضـاري السليم الذي سلمت أسسـه ومنطلقاته من التناقضات، واحتفلت بكل ما يعود على الإنسان بالخير في الدنيا، والفوز بمرضاة الله يوم الحساب.

ساعد على ذلك نظرات شمولية أملتها طبيعة الرسالة الخاتمة من حيث كونُها رسالة الحياة، بكل ما تحمل الحياة من أبعاد ومجالات؛ فمع الجانب الإيماني والفكري، لم تكن المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بمعزل عن المسيرة الرائدة التي استهدفت الإصلاح الجذري، وإقامة البناء

على صيغة متكاملة لا تشكو ضموراً في ناحية، وتضخماً على حسابها في ناحية أخرى.

والعظيم في الموضوع: أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو الأسوة الحسنة والقدوة الميمونة ـ لم يكن ـ وهو يرتاد الطريق، ويخوض بجنده المؤمنين معارك الحياة في الداخل والخارج، ويواجه التحديات المتمثلةَ في المشركين والمنافقين واليهود، ورواسبِ الجاهلية، بالإضافة إلى ما يكون من داخل النفوس.. ـ صاحب فكرة فلسفية يلقيها صاحبها على دروب أتباعه، صلحت للحياة أم لم تصلح.. وفي الوقت نفسه تبدو مبتورة عن شخصيته وسلوكه؛ لأنه لم يمارس الحياة من خلالها، ولا أهمَّه أن يُعانَ على تطبيقها في المجتمع.

أجل.. لم يكن رسول الله كذلك ومعاذ الله أن يكونه، بل العكس هو الصحيح، فقد كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا ينى وهو يبلغ ـ بعون الله ـ الإنسان المسلم ويربيه ويعلمه ويصوغه كما ينبغي.. لا ينى يمارس شؤون الحياة ـ على اختلاف ميادينها وتنوع شُعبها ـ بصورة عملية بالغة الدقة والتناسق بين العمل والسلوك، وبين المبادئ التي حملها إلى الناس.

ترى ذلك في نفسه، وفي بيته، وفي علاقاته الاجتماعية وغيرها مع الناس، الذين خالطهم في العسر وفي اليسر وفي المنشط والمكره، وقاد المجتمع مصلحاً بانياً مجاهداً في حالات السلم والحرب.

وما من قيمة من القيم التي طرحها الإسلام على طريق الإنسان، إلا ولها في حياته ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصيغة الحية المتحركة، التي جعلت من

سيرته ترجمة عملية للرسالة الموحى بها إليه . . كما جعلت من هذه السيرة العطرة : إعلاناً يعكس إيجابية هذه الرسالة ، وأنها تتسع بشمولها وعمقها وإنسانيتها لميادين الحياة كلها دون وكس أو شطط ، وتفسح رحبها للإنسان كما خلقه الله ، وكما شاء سبحانه أن تكون علاقة هذا الإنسان بالكون والحياة ، وأن يكون سعيه على صورة متكاملة للدنيا والآخرة ، تلك الصورة التي تجعل سعي الدنيا حين يقوم على الإيمان وصدق النية : من عمل الآخرة . ﴿ **وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ** ﴾ . وفي الحديث الصحيح : [**الإيمان بضع وستون - أو بضع وسبعون - شعبة ، أعلاها كلمة لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق**] .

هذا . والمنهج الذي اتخذه - عليه الصلاة والسلام - في سيرته وسلوكه وقاد الأمة به ، لا تخفى آثاره فيما صنع لهذه الأمة من حضارة ، وفيما حملها إلى سدة القيادة والريادة في العالمين .

وإذا كان ذلك كذلك : فالعودة بمنهجية وموضوعية إلى إحكام الصلة بين الفرد والمجتمع وبين سيرته - عليه الصلاة والسلام - . . تعني أول ما تعني التحرك الواقعي الطبيعي بالنسبة إلى الأمة ، والبرهان العملي على صدق الانتماء ، كما تعني أن استئناف المسيرة على هذا الهدي الخير ، ليس ضرباً في حديد بارد ، أو حراثة في البحر ، ولكنه سَيْرٌ واعٍ يتسم بالمنهجية والحرص على الذاتية والأصالة ، ويبتعد بالأمة عن السلبية والتبعية ، ويشفيها - بإذن الله - من التناقض بين دعوى الإيمان ، وبين السلوك .

ولكنها - والحق يقال - تبعات كفاؤها إيمان عميق، ووعي لطبيعة الرسالة الخاتمة والظروف المحيطة، والتحديات التي تواجه الأمة من اليهود، ومن يظاهرهم من الداخل والخارج والظاهر والباطن، خصوصاً وأن ميادين التحدي تشمل - فيما تشمل - مع ميادين القتال والسياسة والاقتصاد، ميادين الثقافة والاعتقاد.

وصلى الله وسلم على من أرسله الله كافة للناس بشيراً ونذيراً ليخرجهم من الظلمات إلى النور، فأدى الرسالة وبلغ الأمانة ونصح للأمة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

openkandl.com

العطاء القرآني والإنسان (*)

كان الطريق شائكاً، مزدحماً بالركام، مثقلاً بالموروثات والأوهام، مغلقاً أو شبه مغلق، دون إنسانية الإنسان في حريته وكرامته وتحقيق ذاته، كان ذلك وأشد منه في أكثر بقاع العالم، حتى جاء محمد بن عبدالله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فمهدت يمناه الطريق بالقرآن، وفتحت مغاليقه بمفهومات الدين الجديد.

أجل.. وكان العطاء القرآني، واستمعت الدنيا إلى كلمات الوحي بنورها وهداها. تعلن إعلانها في إنسانية الإنسان، وترسم في تاريخه ميلاد عهد جديد. ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ** ﴾. ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ** ﴾. ﴿ **الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ** ﴾. وكانت أهلية الخلافة في الأرض، وآذن الله ملائكته بذلك. ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** ﴾.

فقام ذلك كله على قاعدة عريضة من التكريم والتفضيل على كثير من خلق الله، وإعداد هذا المخلوق، للإفادة من الكون الذي سخره الله له،

(*) «حضارة الإسلام»، ١٣٩٢هـ.

والتمتع بخيراته وخصائصه، في إطار العبودية لمولاه تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾. ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

وكان من حكمة الحكيم سبحانه، أن أفرد هذا الإنسان من بين المخلوقات بالعطاء الذي يظهر هذا التكريم على الساحة العملية ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾. فترى هنا: نبتليه، سميعاً بصيراً، هديناه السبيل. وكل هذا بعد أن أخرجه الله من العدم، وخلقه من نطفة أمشاج خرجت من بين الصلب والترائب. وفي سورة عبس ما يزيد هذه النقطة وضوحاً وعمقاً.

حتى تلك الآيات التي ذكرت الإنسان بالضعف ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ حيناً، وبالظلم والجهالة حيناً ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾، وبالكنود حيناً، وشهادته عليه، وحبه الشديد للمال حينا آخر ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾، لم تنأ به عن ساحة التكريم؛ لأن من مظاهر التكريم التكليف، والتكليف لا يكون إلا بأهلية معينة، بعض عناصرها العقل والنطق بمعناه الأوسع. والمكلف هو الذي يثاب إن أحسن، ويعاقب إن أساء! أما غير المكلف:

فلا شيء هناك. فحين نرى صفة تلصق بذلك الإنسان الذي ضل طريق إنسانيته، وولى وجهه غير الشطر الذي أراده له مولاه: يكون ذلك في قناعتنا أمراً في غاية الاتساق مع الحق، وواحداً مما تقتضيه العدالة الإلهية في ترتيب النتائج على المقدمات، والمسببات على الأسباب، بعد أن توافرت لهذا المخلوق كل عناصر التكليف وتحمل المسؤولية ﴿**فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ**﴾. ﴿**كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ**﴾ تلاحظ هنا باء السببية. وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: [**الناس مجزيون بأعمالهم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر**].

ولعلنا لا نبعد النجعة حين نستذكر تلك الصورة الموحية فيما تفيض به من حلم الله تعالى على عباده وتذكيرهم بما ينبغي ﴿**يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾**﴾.

وهذا الذي نشير إليه من أن التكليف مناط الجزاء ثواباً وعقاباً، وأن هذا عين التكريم، يشدنا إلى الطريق بدءاً بما جاء في شأن حمل الأمانة التي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان، وانتهاء بكل ما ورد من ألوان المؤاخذة للإنسان عند الانحراف عن جادة الحق.

وبعيداً عن تحديد مدلول الأمانة المقصودة هنا يظل الأمر في حدود التكليف أمر عظيم يترتب على فعله الثواب، وعلى تركه العقاب، حيث قال تعالى عقب ذلك: ﴿**لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً**﴾. والظلوم الجهول

من بني الإنسان هو ذلك الذي لم يرع حق تلك الأمانة التي أهَّله الله لحملها. وملاك ذلك كله ما تجده في سورة العصر حيث أوضحت السورة أن للإنسان واحداً من طريقين لا ثالث لهما. فالإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر هي مقومات الطريق الرابحة، وما عدا ذلك فهو الخراب المبين.

من أجل ذلك كان لابد أن تسير حركة الإنسان في مدار الفطرة التي فطر الله الناس عليها، الأمر الذي كان المرآة التي انعكست عليها رسالات الرسل ودعوتهم إلى التوحيد، وكان خاتمهم في ذلك ـ ولا نبي بعده ـ محمد بن عبدالله ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

ولو حاولت أن ترسم خطاً بيانياً لحرية الإنسان وكرامته في التاريخ، دون تمرغ في نسبية الأخلاق، ودون خضوع لمبادئ الميكيافيلية في أن الغاية تبرر ـ أو تسوغ ـ الوسيلة، لأعوزك أن تجد نظيراً للإسلام فيما كرم به الإنسان ـ على صعيد الواقع العملي في ظل تلك الحقائق ـ وفيما أعطاه من الحرية ضمن إطار الفطرة، والمنهج الرباني الذي أنزله خالق الإنسان والعليم بما يصلحه، ويضمن له سعادة الدنيا والآخرة. . كل ذلك في جو من التناسق بين طاقات الإنسان وخصائصه في نفسه، وبين الإنسان والكون والحياة. . وسبحان الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، وسواه فعدله وعلمه البيان.

إن المصباح الذي تبحث عنه البشرية تحت وطأة الظلام، وفي ظل تجارب المذاهب والنظم في ارتكاساتها وانتكاساتها: قريب منها جِدٌّ لو تجرد الذين

بيدهم مقاليد الفكر والأمر؛ إنه كلمة القرآن الذي كان من عطائه ـ كما أسلفنا ـ ووضعه موضعه الطبيعي في هذا الكون، خلافة في الأرض. وعبودية لله عز وجل، ومن أصدق من الله حديثاً؟

وهكذا، فإن الأمر الذي لا ينبغي، بل لا يجوز أن يتجاهله (الأذكياء) فينا اليوم، أن أهلية الإنسان للخلافة، وما به فضله الله على كثير ممن خلق تفضيلاً، وتسخير الكون له، وإعطاءه مفاتيح هذا التسخير. إنما يعطي عطاءه في نظر الدعوة التي أعلنت ذلك منذ ألف وأربعمئة عام، بأن يكون هذا الإنسان عند الذي أراده الله من التحرك وفق ما تمليه الفطرة، ثم عمل ما من شأنه تحقيق العبودية الخالصة لله عز وجل، وخلع كل الأنداد والاضداد، وإسلام الوجه إليه سبحانه ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾. ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ**﴾.

وهذه الحقيقة هي التي تجعل من الإنسان عنواناً للمعرفة، وتحول دونه ودون أن يستعبد لأخيه الإنسان، أو لأي مخلوق آخر، أو لرهبة أو رغبة على سلم الهوى، كما تحول دون أن يهدر مخلوق كرامة مخلوق، أو ينأى به عن ساحة إنسانيته.. وفي الوقت نفسه، هي التي تطلق لطاقاته الخيرة العنان كيما تعمل عملها لتحقيق أسمى الغايات، وكيما تكون واحداً من البراهين الساطعة على جدارة الإنسان بهذا الذي خلقه الله من أجله، ودليل صدق يزيد المؤمن إيماناً بما ينطق به قول الله تباركت أسماؤه: ﴿**أَلا يَعْلَمُ مَنْ**

﴿خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾، وقوله لملائكته في شأن خلافة آدم ـ عليه السلام ـ ﴿أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾.

لذا كان مطلوباً من الإنسان دائماً أن يكون مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها وهي التوحيد، وأن يعمل على جلاء قلبه، وأن يتفكر بما أعطاه الله من عقل، في نفسه، وفيما حوله من آيات الله المبثوثة في هذا الكون.. ليظل على المورد الزلال، فلا يزيغ ولا تعبث به الأهواء، ولا يغفل عن رسالته في هذه الأرض ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾.

فإذا انقلبت الآية، وانكفأ الإنسان عن الصراط السوي في عبوديته لله عز وجل، فقد ضل سعيه، وهوى إلى الدرك الذي لا يليق بإنسانية الإنسان.

إن الله تعالى حين أنعم على الإنسان بما أنعم، ووضعه على طريق العبودية لم يتركه هملاً، وإنما أعطاه الوسائل التي إن أحسن استخدامها، ووظفها في مواقعها الطبيعية، حصل على ما أريد له من الخير، وفاز بسعادة الدنيا والآخرة.

والذين لا يستخدمون ما أعطاهم الله من الوسائل ـ كما ينبغي ـ فلا يتبعون أحسن القول، ولا يتفكرون في أنفسهم، ولا في خلق السماوات والأرض، ولا يشكرون المنعم المتفضل، باستعمال نعمه في مرضاته، لا في مساخطه. إن هؤلاء ومن على شاكلتهم محكوم عليهم بالغفلة التي نزلت

بهم إلى مستوى هم فيه كالأنعام بل أوغل في الضلال ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ ويوم القيامة ينجلي عن الكفار ما حجبته الغشاوة هنا فيعترفون بأوضح أسلوب أنهم تمرغوا في حمأة العماية بكفرهم ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾. ولقد أسعد الله البشرية بالإسلام، ويا خيبة المسعى إن حالت بينها وبينه عماية القلوب وظلمات الأهواء.

إن شقاء الإنسان اليوم، وما يعانيه بعداً عن الطمأنينة، وغرقاً في بحران من القلق والضياع، إنما مرده في كثير من الأحيان إلى تلك الغفلة التي جعلت الإنسان يهبط ويهبط.. حيث الجهالة تُغَشِّي الفطرة فتنتكس الأمور، وحيث اللهاث وراء الشهوات والمطالب اليومية: لا يدع من الشقاء زيادة لمستزيد، بل وحيث يقف شياطين الإنس والجن لهذا الإنسان بالمرصاد، ينصبون له فخاخ الأذى، فتزل قدمه إلى الهاوية يوماً بعد يوم، وتجد من مظاهر ذلك ما يفزع ويرعب، من الحرص على إنهاء الحياة بالانتحار، أو السكر والخدر والتردي في مهاوي اللامبالاة والضياع. وأنت تجد أن هذا المخلوق ـ مع ما وصل إليه العلم من آفاق، وما كُشف للعقل من مغاليق ـ يدور في حلقة مفرغة لا يجد اليد الحانية التي تمسح عن حياته منغصاتها وأحزانها، لما أن فسحة الأمل عنده منعدمة، وما يحس به المؤمن في عبوديته لله من الرضى والطمأنينة، والطمع بما عند الله، والفرح بفضله، بعيد عنه كل البعد.

وهكذا ـ في عود للحديث على بدء ـ لابد أن يزدان التكريم بالعبودية، وبصاحب أهلية التكليف والخلافة، وتسخير الكون، وضع الأمور في مواضعها كما أراد ربنا تبارك وتعالى، واستعمال الآلاء بطاعة الله، صنيع عباد الرحمن الشاكرين، الذين يعرفون النعم فيشكرونها، ولا يراهم ربهم حيث نهاهم، ولا يفقدهم حيث أمرهم.

إنه ليس بالأمر السهل الذي لا يلتفت إليه، أن يكون من تكريم الإنسان جعله أهلاً لخطاب التكليف الإلهي؛ فيأمره الله وينهاه على لسان رسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ. ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ بعد أن كانت ذروة التكريم في اصطفاء هؤلاء المرسلين من البشر.

وسوف تعاني الإنسانية، وتظل تعاني، ما لم تعد ـ بمعاونة الرواد المصلحين ـ إلى حظيرة العبودية الخالصة التي يتحقق بها وجود الإنسان، مخلوقاً مكرماً، يتفكر في نفسه فيزداد يقينه بوجود الخالق وحكمته، ويتفكر فيما حوله مما سخر الله له وأعطاه من وسائل العلم والمعرفة ومفاتح التسخير، فيشيع في أعماق نفسه وقلبه نور قوله جل وعلا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾. وعندها تسلم له الوجهة، وتستقيم له الطريقة.

الذي نريده لهذا الإنسان، ويريده معنا كل من يبتغون له السعادة والخير: أن يعتصم بحبل الله دينِ الإسلام؛ فهو المنجاة وهو المثابة وهو المعتصم في غمرات هذه الشدة الشادة، فالظلمات المطبقة بكلكها على إنسان العصر

الحديث، ليس لها من دواء ـ بعد كل التجارب ـ إلا الخروج من العبودية للآلة، وللرغبات الكامنة في أعماق من يديرون سياسة العالم، وللشهوات التي كثيراً ما ينزلق بها الإنسان تحت وطأة القلق والتمزق.

إن كل ثمرات العلم التقني، والتنظيم الفائق، واستجلاء عدد وافر من أسرار الكون، لم تستطع أن تسعد الإنسان.. لقد ضاع عن باب مولاه الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى. أجل لقد ضاع عن باب خالقه الرحيم الرحمن.. فهو يدور في تلك الحلقة المفرغة، وكلما زينت له أوهامه أنه وصل إلى شيء أحسَّ بكثير من المرارة أن السراب كان نتيجة مسعاه، وأنه كان فيما يسعى إليه كذاك الذي يشرب من ماء البحر، كلما ازداد ريَّاً ازداد عطشاً.

وإذا كانت المعادلة العقلية تقضي بالانتفاع من حصاد التجربة: فإن على أولئك الذين يتجرون بالحديث عن الإنسان بعيداً عما نزل به وحي السماء، وتسوقهم اللوعة المصطنعة إلى أن يحلموا بأكثر من مدينة فاضلة: أن يراعوا الحق، ولا يكتموا قناعاتهم ـ إن توافرت لهم قناعات ـ تحت وطأة أغراض قريبة، أو عنادٍ ما هو عن أمر الجاهلية ببعيد وأن يذكروا دور الظلم والظالمين فيما يشكى من هذا التخلف عن حقيقة الإسلام.

على أن بعض الغربيين من الكتاب والباحثين الذين بدأت عقولهم تتحرك، وأقلامهم تعطي في هذا المضمار، حتى كتب نفر منهم عن سقوط الحضارة الغربية، وعن أسباب تمزق إنسان هذا القرن وضياعه، يعطون المؤشر الأول في صنيعهم، ولو أتبعوا ما كتبوا بالبحث عن الحقيقة المنشودة

بتجرد، ففاؤوا إلى حظيرة الإيمان، وأزالوا الجفوة فيما بينهم وبين الإسلام، لكان - والله أعلم - من وراء ذلك خير كثير، لأن الإنسان الذي نتحدث عنه في الغرب بما يمتلك من الحرية والرغبة في القراءة، والشعور بما هو فيه، يمكن أن ينقاد لكلمة باحث مخلص، وكثيراً ما كانت الكلمة العميقة الواعية بدء المنعطف الكبير في التاريخ.

وفي نهاية الشوط: لعلي لا أُتهم بالتشاؤم، والمغالاة بالعقلانية، إذا ذهبت إلى أننا حين نريد مخلصين للإنسان أن يفيء إلى ما يردُّ عليه إنسانيته من جديد، كيما يتحقق الوجود الإنساني في هذا الكون بمعناه الواضح المستنير، علينا أن ننصف من أنفسنا فنعترف أن جانباً من جوانب المشكلة يكمن في أن المسلمين اليوم، غير مهيئين ليمثلوا القدوة العملية الصحيحة في الهداية إلى الإسلام، فأين الصورة العملية للإسلام، فرداً ومجتمعاً تحكمه شريعة الله، تعلن بخط سيرها دون عجيج أو ضجيج أن هذا هو الإسلام؟!

فالمسلمون، أو كثير منهم - وإلى الله المشتكى - بعيدون عن حقيقة الإسلام، بصرف النظر عن العوامل التي أدت إلى ذلك، ومنها حقيقة «وما نقموا منهم..» وكثيراً ما يتخذ صنيعهم حجة على الإسلام. ويوم يتحقق - لنا مع الدعوة - مجتمع يقوم عملياً على مبادئها التزاماً بشريعة الله من الحاكم والمحكوم ورضىً بحكمها في كل جانب من جوانب الحياة: تزول - والله أعلم - كثير من العقبات التي تقوم في وجه الإنسان، أياً كان هذا الإنسان.

على أية حال: لقد قرب العلم البعيد، ولم يعد أمراً متعذراً أن يقع على الحقيقة من أرادها، والمفروض أن تسوق عصا الشدة التي يعانيها الإنسان إلى فسحة هي أكثر أملاً وإشراقاً، ولن يجدها المنصف إلا بهذا الدين الذي رضيه الله لخلقه، وهو الأعلم بما يصلحهم، ويومئذ تتجلى الحقيقة بكل قوتها وبهائها لأولئك الذين أصابت أعينهم الغشاوة، ورانت على قلوبهم الغفلة.

هنالك يوقنون أن الله الذي خلق الإنسان وكرمه وفضَّله، هو الذي رضي له الإسلام الذي هو غاية الغاية في الحفاظ على الحرية، وإعطاء الكرامة والتفضيل وجودهما العملي؛ لأن الإسلام دعوة الحياة، بل هو الحياة ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**﴾.

لا حول ولا قوة إلا بالله(*)

من مظاهر المرض في جسم العالم الإسلامي اليوم: وجود نفر غير قليل من ضعفاء النفوس الذين أخذوا من العلم بسبب، ولهم - بحكم مركزهم الديني - عنوان مرموق في بعض الأوساط، يشعر بالعمل على هداية الناس وجذبهم إلى نور الإسلام.. وبسبب من هذا الضعف: ينحرفون في تأويل النصوص ليخضعوها بتحمّل وتكلّف إلى أن تكون مسوغاً لما هم فيه من مخالفات لشريعة الله وحقيقة ما كان عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه والقرون الثلاثة الأولى التي شهد لها رسول الله بالخيرية.

ومنذ خمس سنوات كتب أستاذ كاتب من هؤلاء في إحدى المجلات واسعة الانتشار في العالم العربي يسوِّغ الاختلاط المنافي للشريعة، مُرحِّباً بما يقع فيه كثير من المسلمين من الانحراف - باسم المدنية وذوق القرن العشرين - من علاقة غير مرضيَة شرعاً بين النساء والرجال الأجانب.

ونظراً لما له من عنوان ديني قد يؤثر على بعض قليلي البضاعة العلمية الشرعية: فقد كان لابد من الرد على ضلالاته؛ وقد أشرت يومذاك في افتتاحية (الحضارة) إلى أنه من الظلم للحقيقة أن تؤول النصوص على غير وجهها، وأن تتناسى الظروف التي تحيط بواقعة ما، وما يمكن أن يكون من النسخ أو البيان بتخصيص أو تقييد.. إلخ، تسويغاً لفعل المنحرفين اليوم

(*) خاطرة نشرت بمجلة حضارة الإسلام، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

عن زيغ أو جهل، بدعوى أنه صورة مطابقة لما فعله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه!! وأن ما هم عليه اليوم: هو تطبيق لسنة سنَّها الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ!!

وكتب يومها الأخ الدكتور حسن هويدي ـ مشكوراً، مقالاً ضافياً مزوداً بالنصوص والحقائق الشرعية رد فيه رداً موضوعياً مهذباً على ذالك الذي نشر في تلك المجلة. كما نشرنا في بريد القراء تحقيقاً تاريخياً موثقاً يدل على أن صاحب ذلك الرأي ـ وهو صاحب العنوان الديني العريض ـ مستدرَجٌ، والعياذ بالله ـ يسير في أهله وأولاده على هذا النهج أيضاً؛ فالاختلاط الحقيقي عنده، ما كان من فتاة أجنبية مع فتى أجنبي في غرفة موصدة الأبواب وحدهما، وما عدا ذلك من كل الصور الأخرى ليس من السنة، كذا !!! ويتحدث عن ذلك بغفلة تحمل لوناً من الابتذال للمرأة مقرراً أن ابنته فلانة كانت وما تزال على صداقة بريئة مع بعض الشباب حطَّاً وترحالاً، ولقاءً وتبادل زيارات دون خلوة على الصورة المشار إليها ! لأن كل ما هو دون ذلك مسموح به في نظره !!

ثم كتب إلينا بعضهم يؤيد وجهة النظر المخالفة عن النصوص واضحة الدلالة في المنع، فاعتذرت عن نشر هذا الرد؛ عندها زاد استغرابه وكتب إليَّ يعاتبني على موقف المجلة غير المرن ـ على حد تعبيره ـ، وأنه كان عندما يقرأ ما أكتب: يعجبه ما يتصور من عزيمة الشباب والإضاءة الفكرية والتفتح الذهني المعاصر و . . . و . . . ولكنه فوجئ بهذه القسوة، فأجبته شاكراً اهتمامه، ومما قلته له: إن مجلة «حضارة الإسلام» ليست ملكي ولكنها ـ في

الحقيقة ـ ملك القارئ المسلم الذي نلتقي معه على النهج الإسلامي للمجلة. ومن ذلك أن القضية عندما يكون فيها نصوص من القرآن والسنة: لا يحق لنا أن نطرحها للمناقشة.. أما الأمور الفرعية أو اللغوية وغير ذلك مما يخضع للاجتهاد؛ فصدر المجلة متسع دائماً لذلك. والأمر أولاً وآخراً أمر الكلمة أن تكون مع ذلك النهج السوي!

وإنها لأمانة جد ثقيلة، والمسؤولية أولاً وآخراً في هذه وفي غيرها مما يطرح في المجلة من معلومات وأفكار وآراء: بين يدي رب العالمين.

وتمضي الأيام ويطلعنا تقويم من التقاويم ـ واسعة الانتشار أيضاً ـ ولأصحابه في النفوس تقدير، ليذيع في الناس على الوجه الثاني من عدد من أوراقه في أيام متتالية، كل تلك الكلمات المتهافتة المنشورة من قبل، والتي فيها دعوة صريحة للاختلاط المحرم، وتسويغ ذلك بتكلف شديد، وتحميل النصوص ما لا تحمل، كيما تكون مؤيدة للواقع الفاسد كما أشرنا من قبل.

ومن عجب أن الطرفة على ظهر ورقة التقويم: لا تكون في العادة نصاً طويلاً، يختاره من اختاره ليكون مسلاة القارئ لعدة دقائق في كل يوم، ولكن تكون فائدة مكثفة أو نادرة نثرية أو شعرية أو حكمة محدودة الكلمات تتناسب مع النظرة العجلى إلى التقويم، التي تهدي إلى تاريخ ذلك اليوم وأوقات الصلاة فيه.

ترى هل نسيء الظن أو نحسنه بهذا الاختيار على هذه الشاكلة، ونحن نعلم عكس ذلك من أهل التقويم من قبل؟ أكبر الظن ـ والله أعلم ـ أن ذلك كان عن عدم تثبت، وانبهاراً بما هو خداع العنوان العريض، ولكن هل هو عذر مقبول خصوصاً إذا لاحظنا اختيارات أخرى؟؟

اللهم بك نعوذ من الحور بعد الكور، ونعيذ أحباءنا وإخواننا ـ على وجه العموم ـ من الانزلاق إلى المخالفة عن منهج الهداية في شريعة الله، أو أن يكونوا ـ لا سمح الله ـ من حيث يريدون الخير؛ من دعاة إشاعة الفاحشة وهم لا يشعرون، كما أعيذ نفسي وإياهم من الوقوع في مغبة ما حذَّر الله منه وخوَّف عباده بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾.

وإني لأدعو إلى معاودة قراءة ما كتب في الموضوع، وما نشرتْه هذه المجلة يومذاك في عدديها الأول والثاني للسنة الثالثة عشرة، كيما يرى الناظر المتدبر أن الدليل قائم أبداً ـ وهو ما بيناه بوضوح ـ مع أولئك الذين يريدون للأمة أن تلتزم بالمنهج القرآني والأدب النبوي، وأن العلم والحجة شيء والتأويلات بالهوى، تسويغاً للواقع وترويجاً له: شيء آخر.

كما وأدعو الله تبارك وتعالى أن يجعلنا جميعاً وقّافين عند الحق، آخذين بالعزم والحزم وأدب التزكية، كيما نكون عند قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: [**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به**]، وقوله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: [**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**]. بعيدين كل البعد عن مسالك من يرون المعروف منكراً والمنكر معروفاً. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وصلى الله وسلم وبارك على من ترك أمته على بيضاء نقية ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك!!